أبو الحسن علي الحسني الندوي

كلمة
عن أدب التراجم
و الحديث عن الكتب

الناشر :
كلية اللغة العربية و آدابها
ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)



مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ - (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

و بعد : فان كثيراً من الكتاب و الأدباء - فضلا عن الشادين فى اللغات و المتطفلين على الآداب - يعتبرون موضوع التعريف برجل من ذوى الشأن و الخطر و ترجمة حياته ووصفه من أسهل الأغراض الأدبية ، و المواد الكتابية ، فيكيلون لمن يترجمون له أو يعرفون به ألقابا ونعوتا بسخاء ، و يكون أكثرها كلمات مدح وإطراء مشتركة ، يمكن أن تقال عن كل عالم وأديب أو عظيم وجليل ، أو صالح وتقى ، أو حاكم حكومة ، أو قائد جيش ، لا تفيد تحديد الشخصية و تعيينها ، ولا تصوير القسمات و المخايل ، ولا التجاعيد التى يمتاز بها وجه عن وجه ، وجسم عن جسم ، واللغة العربية من أغنى اللغات فى كلمات الوصف والمدح ، و الحلية و الزينة ، ويكفى الكاتب أن يعتمد فى ذلك على كتاب « الألفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمدانى (المتوفى

٣٢٠هـ - ٩٣٣م) فيأخذ منه ما يشاء من كلمات الوصف والمدح فيجود بها على صاحبه ، أو يرجع إلى كتب التراجم و السير و المكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم فيها - فيختار منها جملا وكلمات ويصف بها المترجم له أو الممدوح و من يكتب عنه ، فيتشابه الرجال و يتماثلون و لا يخرج منها القارىء بمعرفة شخصية دقيقة معينة ، ولا يشعر بالحيوية والحرارة ، ولا بالرقة والنعومة ، و لا بالمرونة و الحركية ، و لا بالعواطف و المشاعر ، و لا بالأحاسيس والانعكاسات و ردود الفعل ، التي تمتاز بها الأجسام الحية عن التماثيل والنصب ، و الصور والدمى ، ويمتاز بها الانسان عن الحيوان فضلا عن الجمادات و النباتات .

و لكن وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليست من السهولة و العموم بالدرجة التي يتصورها كثير من الناس ، فان ذلك يحتاج إلى عدة مؤهلات ، أولاها : المعرفة الشخصية الواعية الناقدة إذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أفضل المؤهلات و أقواها ، و إلا فعن طريق الدراسة الأمينة و تتبع الأخبار وأن تقوم بينهما صلة من الصلات التي تحث على تتبع الأخبار و التعرف على الخصائص ، ويليها : الاقتدار على البيان و التعبير و تملك ثروة لغوية و كلمات مميزة فاصلة ، ثم يأتي دور الدقة و الأمانة و الشعور بالمسئولية ، و القدرة على تفصيل اللباس على

قامة المترجم له و المعرف به ، فلا يكسوه لباساً سابغاً فضفاضاً يبدو فيه قزماً حقيراً ، وينم هذا اللباس عن أنه لباس لغير هـذا الانسان و لقامة أطول من قامته ، و للرجال قامات وقيم ، وقد تكون الجناية على القيمة أشنع من الجناية على القامة .

ومهم كذلك أن يتوفر عنـــد الكتابة فى ترجمة حياة أو تعريف بشخصية ، دافع نبيل و رغبة ملحة تنبع من القلب ، من تجاوب مع فكرة ، أو استجابة لنداء الضمير ، أو دفاع عن كرامة مهضومة ، وحق سليب ، أورد لاعتبار ، أو وفاء بفضل ، أو إعجاب بجمال أو كمـال ، فان الكتابة إذا تجردت عن هذه العوامل كلها كانت أشبه برسم خشيب جامد أو وشى وتطريز لمجرد الربح المادى و الغرض التجارى ، و يكون الكاتب أو الشـاعر فى ذلك كالمطرب المحترف أو النائحة المأجورة .

ويجب أن يعرف أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (Temperature) فلا توضع كلمة ذات حرارة متصاعـــدة مكان كلمة ذات حرارة منخفضة، فضلا عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة ، و لا يسخى بكلمـة تعطى صورة هـائلة من العظمــة و الكـــال ، أو النبوغ و الذكاء ، أو الخلق الحسن ، و السيرة العالية، أو العلم الغزير و الذكاء الألمعى، لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسط والاقتصاد، ثم يضعه فى طبقته ويحدد اختصاصه

وتميزه فى فن من الفنون أو موضوع من الموضوعات .

و المشكلة حين يكون المترجم جامعاً بين أصناف العلم و ضروب الكمال و أشتات الفضائل ، كما كان الشأن مع العلماء الأقدمين بصفة عامة، فلا يقدر على تحديد اختصاصه إلا من اطلع على مؤلفاته جميعاً ، واطلع على آراء معاصريه فيه وحكمهم عليه .

و بهذه الخصيصة امتاز العلامة شمس الدين أحمد بن خلكان (م٦٨١ھ) فى كتابه « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » من بين مؤلفى كتب التراجم و السير ، فانه إذا وصف أحداً من المترجم لهم بقوله : النحوى ، أو الفقيه ، أو الأديب ، أو المفسر ، أو اللغوى ، أو الواعظ ، فليس من الميسور زحزحته عن مكانه الرئيسى و الاختصاصى ، ووضعه فى طبقة أخرى ، و هذا قلما تيسر لمؤلفى كتب التراجم و السير ، ولا يقدر عليه إلا صاحب سليقة فى فن التراجم ، و من أعطاه الله الدقة فى الحكم ، و رقة الشعور ، وحسن الذوق ، و الاطلاع الواسع الدقيق .

لقد أراد الله أن أنشأ فى بيئة كانت هوايتها التاريخ وكتابة التراجم و السير ، و أن أولد فى أسرة كان فيها مؤرخون و مؤلفون ، و كان أكثر اشتغالهم بالتأليف فى تراجم الرجال ، و طبقات الشعراء و الأدباء ، وسير العظماء ، من المصلحين و العلماء و الملوك والأمراء ، فكان جدى العلامة السيد فخر الدين

الحسنى (م١٣٢٦هـ) من السابقين إلى فكرة وضع موسوعة باللغة الفارسية حين لم يخطر هـذا ببال كثير من العلماء و المؤلفين فى شبه القارة الهندية، وذلك قبل ثمانين سنة أو أكثر حين لم تعرف الموسوعات و دوائر المعارف فى الهند حتى فى اللغات الأجنبية، فوضع كتابه «مهرجهانتاب» (١) فى مجلدين ضخمين يحتوى المجلد الأول بخط مؤلفه على ثلاث مائة وألف (١٣٠٠) صفحة بالقطع الكبير، و أكثرها تراجم الطبقات للصوفية و العلماء و الشعراء، و وفق و الذى العلامة السيد عبد الحى الحسنى (م١٣٤١هـ) لوضع أكبر كتاب يعرف فى شبه القارة الهندية فى تراجم الرجال الذين نبغوا فى الهند من القرن الاسلامى الأول إلى سنة وفاة المؤلف ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطى المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى، و المساحة المكانية من ممر خيبر فى الشمال الغربى من الهند إلى خليج بنغال فى الشرق، و من قلل كشمير إلى «ما لابار» و «كالى كوت» فى الجنوب، و الأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية واتجاهاتهم العلمية، و اختصاصاتهم الفنية، فجاء فى ثمانية مجلدات كبار يحتوى على أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة (٤٥٠٠) من

---

(١) معناه: الشمس المضيئة للعالم.

التراجم (١) ، و هو أشبه فى أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بابن خلكان فى الدقة و الأمانة ، و تحرى الصدق و القياسات اللائقة و الدقيقة فى تخير الأوصاف و النعوت ، هذا إلى كتاب آخر اسمه « كل رعنا » (٢) فى طبقات شعراء الهند فى « أردو » ، اعتبر من المراجع الرئيسية فى تاريخ الشعراء ونقـد الشعر وقرر تدريسه فى عدة جامعات فى القارة الهندية ، يضاف إليهما كتابه الثالث : « ياد أيام » (٣) ، فى تاريخ ولاية كجرات و علمائها و عظمائها و حكوماتها ، و هو النموذج العالى لتاريخ بلاد و ولايات ، يجب أن يحتذى ويقلد ، و قد قرأت هذه الكتب فى سن مبكرة ، لأنها كتب كانت فى متناول اليـد ، و كانت الدوافع إلى قراءتها قوية و طبعية ، فحفظت منها الكثير ، وقلدت أساوب المؤلف حين بدأت أشدو فى اللغة و الأدب ، وأمسكت القلم للكتابة و الانشاء .

لذلك كلـه كان أدب التراجم و السير من أحب الآداب و أخفها و أسهلها لى ، و كانت هوايتى وشغلى الشاغل فى سن قلما يتسير فيها الكتابة لكثير من هواة الأدب و الانشاء ، فبدأت أؤلف فى تراجم الرجال وسير النابهين من العلماء و المصلحين

(١) صدرت طبعتان للكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد « الهند » .
(٢) معناه بالعربيه : « الوردة الرشيقة » ، صدر أربع طبعات للكتاب من المجمع العلمى الكبير « دار المصنفين » فى أعظم كره « الهند » .
(٣) معناه : « ذكرى الأيام الماضية » وصدرت له طبعتان .

بالعربية قليلا ، وبالأردية أكثر (١) وتكون من هذه التراجم والسير مكتبة لا بأس بها في كتب التراجم وسير المصلحين و المجددين فى الاسلام ، و الدعاة والمربين الذين نفع الله بهم الأمة ونهضوا بها فى مختلف الأدوار و الأمصار .

وكذلك تقديم كتاب لمؤلف معاصر أو عالم كبير ، أو صديق عزيز، ليس عملا تقليدياً يقوم به الكاتب بمجاملة أو تحقيقاً لرغبة المؤلف أو النـــاشر أو إراضائه ، إنه شهادة و تزكية ، و لهما أحكامهما و آدابهما ومسئوليتهما ، و قد يتحول من شهادة بالحق و تقويم الكتاب تقويماً علمياً ، وبيان مكانته فى ما كتب وألف فى موضوعه ، ومدى مجهود المؤلف فى إخراج هذا الكتـاب ونجاحه فى عمله التأليفى أو الحقيق ، إلى سمسرة تجارية أو قصيدة مدح و إطراء من شاعر من شعراء المـديح ، فيفقد قيمته العلميـة و الأدبية و يتجرد من الحياة و الروح ، و لا بد فى التقديم من زيادة معلومات و إلقاء أضواء على موضوع الكتاب ومقاصده ، و على حياة المؤلف و مكانتـــه بين العلماء المعاصرين فى عصره و مصره ، و على تكوينـه العقلى و نشوئه العلمى و الدوافع التى دفعته إلى التأليف فى هذا الموضوع رغم وجود مكتبة واسعة فى

(١) صدرت للمؤلف مجموعـة مقالات فى أردو عن المعاصرين الكبار الراحلين اسمها « المصابيح القديمة » عدد التراجم فيها ٤٢ ـ و هى فى جزئين .

موضوعه أو مجموعة من الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع ، و لا يكون التقديم مجموع كلمات تقريظ ومدح يمكن أن يحلى به جيد أى كتاب إذا غير اسمه و اسم مؤلفه .

ولا بد من أن تكون بين المقدم للكتاب وبين موضوعه صلة علمية أو ذوقية أو دراسة وافية للموضوع وما ألف فيه ، وارتباط وثيق كذلك بينه و بين المؤلف ، يمكنه من الاطلاع على تركيبه العقلى و العلمى و العاطفى ، إذا كان الكتاب فى موضوع علمى أو أدبى أو فكرى أو دعوى . و على مدى إخلاصه لموضوعه و اختصاصه و تفانيه فيه و رسوخه فى العلم و الدين و أخذهما من أصحاب الاختصاص فيه المعترف بفضلهم ، إذا كان الكتاب فى موضوع دينى كالتفسير و الحديث و الفقه و ما إلى ذلك . و يجب أن يكون هذا التقديم عن اندفاع وتجاوب وتحقيق لرغبة نشأت فى نفس المقدم بعد قراءة هذا الكتاب تحثه على كتابة هذا التقديم و تحبب إليه المهمة وتيسرها له بحيث إذا امتنع عنها اعتبر نفسه مقصرا فى أداء حق و إبداء مشاعر و انطباعات ، حاجة فى نفس يعقوب ما قضاها ، و ذلك هو التقديم الطبيعى المنصف الذى له أثره وفائدته .

ووقع بصرى أخيراً على مقالات بالعربيـة كتبتها فى إبداء مشاعرى وانطباعاتى عن شخصيات عاشرتها وعشت معها ، أو عرفتها

عن كتب لا عن كتب، و عن خبرة و تجربة، لا عن سماع و حكاية، و قد كتبتها فى مناسبات مختلفة غالباً على إثر وفاتها، لبعض كبار العلماء أو المؤلفين الأصدقاء، و قد نشر أكثرها فى مجلة «حضارة الاسلام» التى كان يرأس تحريرها فقيد الاسلام و العلم الدكتور مصطفى السباعى، أو مجلة «البعث الاسلامى» أو صحيفة «الرائد» الصادرتين من ندوة العلماء.

و اطلعت كذلك على سلسلة مقالات لى عنوانها «الكتب التى عشت فيها» ذكرت فيها الكتب التى كان لها دور خاص فى تكوين ذوقى، و عقليتى و أسلوب تفكيرى، ورأيت أنها إذا جمع بعضها مع بعض كانت مجموعة يتعرف بها القراء على تراجم هؤلاء الفضلاء، و العاملين لرفع شأن الاسلام و المسلمين، و المربين الكبار، و قادة أكبر الحركات الاسلامية فى عصرهم، و يترحمون عليهم و يدعون لهم و يتعلمون منهم الكثير من الاخلاص و الأخلاق وعلو الهمة، و الاهتمام بالأمة، والجمع بين الفضائل المتشتتة، وكذلك يطلعون على بعض الكتب المهمة المفيدة فى موضوعها فيحملهم ذلك على مطالعتها و الافادة منها، ويصبح الكتاب حديقة واسعة زاهرة ينتقل فيها القارىء من داعية قائد، إلى عالم مرب، ومن مخلص ربانى إلى نموذج إنسانى عال، و من مجاهد مناضل إلى مؤلف

ومحقق ، ومن كتاب فى الملحمة الاسلامية و غزوات الصحابة وفتوحهم ، إلى كتاب فى السيرة النبوية ، إلى كتاب فى وصف وضع المسلمين الحالى و إثارة الشعور و الغيرة فيهم و الاشادة بماضى المسلمين ، إلى كتاب فى سير الربانين من العلماء و المربين ، إلى كتاب فى سيرة شخصية إسلامية مثالية كسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إلى كتب فى الأدب الرفيع والشعر الرقيق والتاريخ الزاخر بالمعلومات والعبر ، إلى مقالات ورسائل مثيرة للفكر ومغذية للعلم و حاملة على الدعوة و الكفاح ، و كانت نهاية المطاف دراسة القرآن الكريم دراسة تأمل و اعتبار و تطبيق ، فلا يمل ولا يسئم ، ولا يملأ وعاءه من نوع خاص من علم أو أدب أو كفاح أو عمل إسلامى ، أو بحث علمى وتحقيق موضوعى .

و إلى القراء هذه المجموعة التى كتبت فى أوقات مختلفة و التى قد تطول بينها الفجوة ، و لكن تربطها وحدة ، و هى وحدة الشهادة بالحق ، و أداء الأمانة ، و الوفاء لصاحب الفضل و الحث على الانتفاع و التقليد ، و بالله التوفيق .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

١٢ من ربيع الآخر ١٤٠٦هـ	ندوة العلماء
٢٥ من ديسمبر ١٩٨٥م	لكهنؤ (الهند)